

معرف الكائن الرقمي للمقال (DOI): 10.54240/2318-011-003-017

جوانب من الحياة الاجتماعية والثقافية في الصحراء الجزائرية
من خلال كتابات الجنرال أوجين دوماس في حولية استيطان
الجزائريين 1852-1853

Aspects of social and cultural life in the Algerian desert
through the writings of General Eugène Dumas in the
Yearbook of the Algerian Settlement 1852-1853

اسم ولقب المؤلف المرسل: وابل بختة- Ouabel Bekhta صص 335- 349
الدرجة والعنوان المهني: أستاذة محاضرة ب- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة العربي
التبسي- تبسة/ البريد الإلكتروني: bekhta16alger@yahoo.com

تاريخ استقبال المقال: 2021/06/25 تاريخ المراجعة: 2021/07/13 تاريخ القبول: 2021/10/03

الملخص: نشرت حولية الاستيطان مجموعة مقالات للجنرال دوماس في العديد من أعدادها أثناء أداء مهامه كمسؤول عن شؤون الأهالي العرب في محافظة وهران ما بين 1837-1841، ولأنه كان يحسن التحدث بالعربية، أسندت له مهمة قنصل عند الأمير عبد القادر، وتوسع نشاطه حتى شمل الجنوب الغربي.

ذكر في مقالاته (وهو يعد مستشرقاً وإنثوغرافياً) جملة من العادات والتقاليد التي اشتهر بها سكان الصحراء بصورة دقيقة، وصف مظاهرها وجدورها، وأسباب انتشارها، وتعلق الأهالي بها، وكان الغرض منها زيادة التعرف على السكان المحليين بغية الهيمنة عليهم، حيث بين أساليب وطرق السيطرة عليهم من خلالها، والتي تعتبر مكسبا حقيقيا وسلاحا آخر في يد السلطة الفرنسية، بهدف تطوير مشروعها الاستيطاني في الجزائر.

لقد اصدر الجنرال دوماس كتابا عن "المنطقة الصحراوية"، تعرض فيه إلى وصف قبائلها واهتمامهم بتربية الخيول، والعناية الكبيرة بها، وإطرائها بقصائد شعرية، تظهر مدى تعلقهم بها، ثم يشير إلى نمط العيش المتنقل سعيا وراء الماء والكأ والخيام، والبحث الدائم

عن المؤونة، بالإضافة إلى الاحتفالات الموسمية والرقصة المشهورة بالحضرة، وأهمية البرنوس باعتباره شعار مرابطها وشيوخ أهل المنطقة.

هذا الوصف الدقيق والتفصيلي عن الصحراء وسكانها، كان الغرض منه إبراز أهميتها في المشروع الاستعماري، وضرورة بقاء المحتل الفرنسي في المنطقة، والتوغل إلى التخوم الأخرى.

الكلمات المفتاحية: عادات وتقاليد؛ الفروسية؛ تربية الخيول؛ الخيمة؛ الحضرة؛ البرنوس؛ البداوة؛ الترحال؛ المشروع الاستيطاني؛ خدمة الاقتصاد.

Abstract: The settlement annals published a collection of articles by general Dumas in many of its preparation while he was performing his duties as an official for the affairs of the Arab people in Oran province between 1837-1841. Because he spoke Arabic fluently; he was given the task of consul of Prince Abdul Kader, and his activity expanded to the southwest.

In his essay which is considered east and autographic, he mentioned a series of customs and tradition in which the Sahara population was well known. He described their aspects, roots, the causes of their spread and their attachment to them. He intended to increase the recognition of the local population in order to dominate them and he showed the methods or ways of controlling them. This was considered a real gain and another weapon in the hands of the French authority to develop its settlement project in Algeria.

General Dumas has issued a book on the desert region, in which he described its tribes and their interest in raising horses, caring for them with emotional poems. He also showed their search for permanent supplies, as well as seasonal celebration and the famous dance for the greenery. The importances of the Bernus with symbolize the wearing of elder people.

This detailed and accurate description of the Sahara and its inhabitants was intended to highlight its importance in the colonial project, and the necessity for the French occupier to remain in the region, and to advance to the other frontiers.

Keywords: Customs and tradition; Equestrian; horse rearing; tent; urban; Bernus; Bedouin; settlement project; economy service.

المقدمة: في إطار سياسة التوسع الاستعماري ليشمل كافة أقاليم الجزائر، عمل الحاكم العام للجزائر الجنرال راندون (Rondon) جاهدا على إحكام قبضته على الصحراء الجزائرية، بفضل تشجيعه المتواصل للكتابة عنها.

لقد نشرت عدة جمعيات استكشافية تقارير بغرض التعريف بالصحراء وإمكاناتها، وما تزخر به من موارد، بالإضافة إلى الظروف المناخية من حيث ارتفاع درجات الحرارة، والمناخ الجاف، وصعوبة العيش والإقامة فيها.

لم تكتف السلطات الاستعمارية بهذه التقارير، لذلك جندت جملة من الباحثين المفكرين من العسكريين، للولوج وسط سكان الصحراء، والعيش بين ظهرانيهم، للتعرف عن قرب عن عاداتهم وتقاليدهم، والتي كانت تتميز عن باقي المجتمعات.

وكان من الذين كلفوا بذلك الجنرال دوماس، الذي جمع بين صفتي العسكري والباحث الإثنوغرافي، وقد دوّن العديد من المقالات عن المجتمع الصحراوي والمظاهر الثقافية في حولية استيطان الجزائريين بين سنتي 1852-1853.

من خلال عرض هذه المقالات سوف نتعرف على كيفية نقله للمظاهر الثقافية عن المجتمع الصحراوي، فما هي طبيعتها؟ وإلى أي مدى كان صادقا وموضوعيا في وصفها؟ وما هو الغرض من ذلك؟

التعريف بالجنرال دوماس: جوزيف أوجين دوماس (Joseph Eugene Dumas) من مواليد 14 جويلية 1803 بمنطقة دلمونت (Delmont) بسويسرا، أجاد اللغة العربية، ولذلك عين قنصلا لدى الأمير عبد القادر سنة 1837، حيث تمكن من التعرف عن كثب على الأحوال الاجتماعية في منطقة الجنوب الغربي والصحراء خاصة، كما شغل في عهد الجنرال بيجو (Bugeaud) في سنة 1841، منصب مدير المكاتب العربية إلى غاية سنة 1852، ورتقى إلى مدير الشؤون الجزائرية، ونائب في مجلس الشيوخ. أصدر العديد من المؤلفات أهمها: خيول الصحراء، (les chevaux de Sahara)، صحراء الجزائر (Sahara Algerian)، العادات والتقاليد الجزائرية (moeurs et coutumes de l'Algérie) نشر الكثير من المقالات التي تظهر مدى معرفته واطلاعه الكبير على مظاهر الحياة في المجتمع الصحراوي، توفي بتاريخ 29 أفريل 1871.

نبذة عن حولية استيطان الجزائريين: أكدت مديرية شؤون الأهالي في فترة حكم الجنرال راندون (Randon) ضرورة المساهمة في تطوير الكتابة عن أوضاع الجزائر بصفة عامة، والمنطقة الصحراوية بصفة أخص، وجعلها جزء من اهتماماتها. وسعيا من المديرية لإطلاع

الرأي العام على سياستها المطبقة، أصدرت مجلة بعنوان "حوليات استيطان الجزائريين" سنة 1852، وضعتها تحت إشراف الضابط الفرنسي دوماس، ركزت فيها على الجوانب الثقافية، وحفل الجزء الأول الذي نحن بصدد دراسة محتواه، بالعديد من المقالات عن سكان الصحراء ونمط حياتهم، وعاداتهم وتقاليدهم.

1- المنطقة الصحراوية: يعد الجنوب الجزائري جزءاً من الصحراء الكبرى الإفريقية، التي تمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً، ومن جبال الأطلسي شمالاً إلى بلدان الساحل جنوباً، حيث تغطي الصحراء 90% من مساحة القطر الجزائري¹، وتم احتلال تخومها رسمياً من قبل الحاكم العام للجزائر بتاريخ 04 ديسمبر 1852م². وقد لعبت هذه المنطقة دوراً حضارياً هاماً من خلال ربطها بأهم مناطق شمال القارة الإفريقية بجنوبها، إبتداءً من منطقة الأغواط، التي تعتبر مركزاً استراتيجياً يربط منطقة الواحات بقبائل الزيبان، وغيرها من المناطق³ في مختلف الميادين.

قدم الجنرال دوماس دراسة مفصلة عن الخيول، من حيث أهميتها لأهالي المنطقة وتعليمها وتربيتها، والركوب عليها، والافتخار بسرعة جريها في الاحتفالات الموسمية والمسابقات المحلية، وعبر عن ذلك بأنها تغطي جانباً مهماً في حياة المجتمع الجزائري⁴.

2- الفروسية وتربية الخيول: وردت الإشارة إلى الخيول في القران الكريم مرات عديدة، والتي تميزها عن غيرها من الحيوانات، وتعلي من شأنها ومكانتها، وهذا ما لاحظته الكاتب دوماس، لذلك خصص الكثير من المقالات في الحولية للحديث عن الخيول، ومدى اختلافها عن الحيوانات الأخرى، ومكانتها لدى السكان⁵، حيث أنها شُهِت بالعاديات، لأنها تجري في الغزوات والمعارك، قال الله تعالى في محكم كتابه: "وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا" فَأَنْزَرَ بِهِ نَفْعًا⁶، والتي جاء في تفسيرها أن العاديات هي الخيل التي تجري في الحرب، أما ضبحا فهو صوت أنفاسها، والموريات قدحا تعني النار التي تخرج من حوافرها أثناء العدو.

صوّر دوماس الفارس العربي وعلاقته بالفرس مثل الرجل العاشق والمحب لها، من حيث تعلقه بها منذ الصغر، ذلك أن هذا الحب يسري في عروقه ودمه⁷، وتبعاً لذلك اشتهرت ألعاب الفروسية الجماعية، حيث تعرض الخيول حماسها ومهارتها، مما يشكل

منظر عربي جميل، وقد تعدت أهميتها في الاستعراضات الاحتفالية إلى وظيفتها في الحرب، حيث يسميها دوماس بحصان الحرب، من خلال إعداد الفارس نفسه للجهاد والحرب، ويجري إعداده وتدريبه منذ الصغر على هذه التقنيات وغيرها، وهذا ما صرح به على صفحات الحولية.⁸

كذلك الأمر نفسه في شرق الجزائر، من حيث الارتباط بالخيول، حيث تتم رعايتها والاهتمام بها كأبنائهم.

ذكر دوماس في كتابه "خيول الصحراء" (les chevaux du Sahara) أن هناك شائعة تقول إن العرب يسيؤون إلى خيولهم، وأنهم بالكاد يطعمونهم ليعيشوا، بالنسبة لنا لا يمكن تصديق أن شعبا متمردا وغير متحضر اعتاد على الحرمان يمنح الحيوانات مثل هذه العناية الدقيقة، كما أنه من غير المقبول وغير الممكن التسليم والتصديق أن نظافة الخيل مهمة تماما في بلد مشهور بإنتاج وتربية الخيول⁹، لذلك وجه الكاتب انتقادا لتلك الأكاذيب والمبالغات حول هذه المنطقة وخيولها، مما يمكن اعتباره موقفا موضوعيا نبيلًا، وتكرر هذا في مرات عديدة.

تحدث دوماس عن تربية الخيول وهي صغيرة إلى أن تصبح قوية صلبة، تتحمل السير لمدة خمسة عشر(15) يوما، وأدرج الكاتب طبعة أخرى تحوي العديد من الملاحظات عن الأمير عبد القادر مما زاد في حماس قرائه¹⁰، حيث ذكر أن العرب لا يعاملون حيواناتهم بالقسوة والشدة بل يتجاوزون المعاناة في إعداد الخيول، إلى اعتبارها ترفًا ومنتعة، فهم رجال يعرفون كيف ومتى يستخدمون العقاب والتربية¹¹.

يشير الكاتب من جهة أخرى إلى أن الخيول استعملت لأغراض ثانية، سوف يتناولها لاحقًا، لذلك لا بد من إعطاء اهتمام له ولكتابه¹²، حيث أنه خصص فصلا مهما للصراعات بين القبائل الصحراوية، والتي غالبا ما يشار إليها على أنها مثال للأصالة¹³، والتي تعرف خارج المنطقة الصحراوية، مثل هذه الأعمال ومن يقوم بها بقطاع الطرق¹⁴.

يحكي قصة نهب قافلة أهينت خلالها نساء القبيلة عن طريق المباغطة والمفاجأة (الطيحة-Tihha)، واللواتي كنّ يحملن الماء ويسرحن بالأغنام، من قبل أشخاص يسميهم الكاتب بالأشرار، بالرغم من أنهم من نفس القبائل، والتي بينها عقود تحالف وإخلاص

وثقة، وتسود بينهم نفس مشاعر التعاطف والمصالح، لكنهم في نظره أعداء¹⁵، وبالرغم من طلب المساعدة، وبالرغم من أن حلفاؤهم كانوا بعيدين عنهم، ولن يصلوا إليهم قبل 8 أو 10 أيام، في هذه الآونة تعيد المجالس اكتشاف ذاتها، وإثارة روح الحمية بين قادتها، من خلال شعار (تصريح) "لقد حذرتم يا عبيد الله، فعليتنا أن نهرب، فنجمع عدتنا من حبوب- قمح وشعير- وألبسة فاخرة واللحوم الجافة"¹⁶.

لقد تعجب الكاتب كيف أن القبائل المتحالفة نادت بالكفاح بالرغم من بساطة العدة وبعد المسافة، الشيء الذي أثار المؤلف، حتى قال: إن العين منبهة من هذا الخليط الرهيب العجيب، حشد متنوع من المحاربين والخيول، فرسان شديدي الحماسة والهمة¹⁷، يجرون وراءهم الكلاب والنعام، يتحكم فيهم القادة أصحاب المسؤولية الأكثر جدية¹⁸، لأنهم إذا خسروا المعركة تعد انتكاسة وخداع وخراب وعار عليهم.

استعرض دوماس أهمية الحصان الإفريقي في الحياة الاجتماعية، وقد تجاوز في عرضه العديد من الحضارات، التي لا يعرف المجتمع الأوروبي عنها شيئا¹⁹، عندما لاحظ مكانة الخيول في الحياة العامة للسكان الأصليين (الأهالي).

حاول إيبوليت بو (Hippolyte pau)- رئيس تحرير حولية الاستيطان- مع المؤلف، بأن يأذن له في تقديم الكتاب لقراء المجلة، من خلال إشارة دوماس إلى الدور الاقتصادي للخيول، والذي بينه بصورة جلية واضحة، علما أن المجتمع الفرنسي لا يزال على قناعة أن عملية الحرث تتم بالمحراث والثيران، وليس الخيول، ولكن من خلال هذا التقديم أصبح معلوما أن الخيول تستخدم في الزراعة وأغراض أخرى²⁰، وخير دليل امتطاء الفرس من قبل الأمير عبد القادر، فلا بد إذن من استغلاله لخدمة الاستعمار في الجزائر.

قدم الجنرال دوماس خدمة كبيرة لتطور الاستيطان الاستعماري في الجزائر من خلال هذه الدراسة التفصيلية عن الخيول، وبخاصة في منطقة الصحراء، الأمر الذي جعل الإدارة الفرنسية تقر به إليها أكثر، وجعلته مسيرا للمكاتب العربية لفترة طويلة، لاسيما وأنها كانت تحظى بدعم الجنرال بيجولها، وبذلك أصبح لحولية الاستيطان صدى كبيرا لدى الحكومة الفرنسية وقطاع واسع من القراء.

يورد الكاتب قصة رجلين يتباريان بالفروسية على صهوة جوادين أصليين، أحدهما يلاحق الآخر، وأحدهما يترك رفيقه ليهرب مبتعدا، يائسا من الوصول إليه، فيناديه قائلا: أسالك باسم الله تعالى، هل فرسك في حالة سكر؟ ثم يختم الكاتب وصفه بقول لوالد الأمير عبد القادر، بكلمات معبرة رائعة: "ألم يخلق الله الخيل للعرق، الثور للعمل والجمل لنقل الأعباء"، حيث لاحظ الكاتب أن استخدام العرب والبربر للخيل في أعمال الأرض هي مخالفة للحقيقة التقليدية المعروفة في الجزائر القديمة²¹، فهي غريبة عن الاقتصاد الريفي، مما ضاعف من إصراره على ضرورة القراءة عنه لأهميته خدمة للمستعمر الفرنسي.

تطرق دوماس في إحدى مقالاته إلى الزراعة الإفريقية، من خلال كتاب لمؤلف قرطاجي يدعى ماجون (Magon)، حصل عليه، وترجم إلى اللاتينية بأمر من مجلس الشيوخ الروماني لأهميته، يتناول العلوم الريفية، والذي اعتبر مكسبا حقيقيا²². حيث يصف الكاتب ماجون الخيول العربية بأنها تتميز بحوافر صلبة ورشيقة، في مناطق التل، لها شعر طويل يتدلى تحت حنكها، على عكس خيول الصحراء، التي تمشي على الرمال الناعمة. بحيث تنمو الحوافر بشكل غير متناسق، وبالتالي يمكنه العيش في مختلف المناطق، ويدلل على صحة ما ذهب إليه الكاتب من كلام للأمير عبد القادر في عديد من الرسائل، تهر القراء عن الفرس العربي²³.

ويورد وصف آخر للمؤرخ حيث يقول: "خيول كثيرة، سريعة جدا، وبالرغم من الطريقة البدائية، حيث يركبون سرجا وأحيانا بدونها، ويمررون حبلًا على فم الفرس، على عكس النوميدين، اللذين لم يكونوا يفعلون ذلك، أو كما يسميها الفرامل، كما كانوا يحملون الرماح والسيوف التي تعتبر دروع تحميهم من خطر الخصوم والأعداء، حيث يستعملون اليد اليمنى في المبارزة والظعن"، كما ذكر مقولة له مفادها: "أنهم يربون الوحوش الضارية في الحدائق، في حين هم يربون الخيول"²⁴.

كما ذكر أنهم يتميزون بالبراعة في القفز من ظهر حصان لأخر، وكأنها ألعاب سرك، ويستشهد الكاتب الفرنسي دوماس بمقولة للمؤرخ النوميدي فحواها: "أن هذه القوات

الخفيفة أزعجت جيشنا بشكل فردي، وأبقتة دائما في حالة تأهب واستعداد دائمين، عجزت جيوشنا في ملاحقة جيوشهم، لقد توقف جنودنا عن مضايقتهم واتهامهم بالقوة²⁵. لم يغفل دوماس عن أهمية الجمل، الذي يعتبر من بين الحيوانات التي ساعدت البربر على الاستقلال من أيدي الغزاة، بالإضافة إلى دوره في الحراسة سواء في مناطق التل أو الصحراء، إلا أنه خلص في النهاية إلى أن الخيول هي الحامي والمنقذ لهم في كل المحطات، حيث لا يمكن للقوافل الاستغناء عنها؛ فهي المورد الاقتصادي للوحدات²⁶، لذلك تحظى برعاية سكان إفريقيا.

إن العناية بالخيول حسب دوماس ترجع إلى نمط العبادة عند سكان الصحراء، أي تدخل في معتقداتهم الدينية، لارتباطها بالطبيعة الصحراوية، والبحث الدائم عن الماء، نظرا لقلته، بواسطة الخيول، إلا أن دوره اشتهر في الداخل، في الوطن الأم وليس في الخارج²⁷. خلص المؤلف في الأخير إلى إن الحصان الإفريقي لم يستخدم في الماضي في الأعمال الزراعية، لذلك فهو يوصي بضرورة تربية الخيول، وتحسين أنواعها من خلال توزيعها مع الخيول الأوروبية، مما يفتح آفاقا جديدة للتجارة بالحيوانات، خاصة وأن قانون 1851 منح تسهيلات كبيرة للتجارة الفرنسية في الأسواق الأوروبية²⁸.

يشير دوماس إلى أن ذلك يعطي دفعة جديدة للتجارة الفرنسية في إفريقيا، بفتحه آفاقا جديدة، ويجب أن يتم هذا المسار بحزم وذكاء، وبالتالي فإن المستعمرة المتروبولية نفسها ستدين له بالشكر الكبير.

3- الاحتفالات: هي مناسبات موسمية تقام لأسباب عدة، دينية أو أعراس، أو نجاح بموسم زراعي، أو في حملة من الحملات، يجتمع الناس في حلقات، تصدح أصواتهم بالأغاني الرومنسية يصاحبها عزف على الناي، مع دموع الفرح في عيون النساء²⁹، حيث تشكل لوحة ساحرة وغريبة للصحراء وسط هذه الكتل البشرية، وهي تستمتع بمجموعة من القصائد الشعرية ظاهرها المديح والغزل³⁰، حيث يصور الشاعر امرأة فاتنة الجمال يغرم بها رجل معين.

إلا أنه بالتمعن جيدا في أبيات القصيدة، نجد أن الشاعر يكتفي عن فرسه بمحبوبته ذات الهيبة والجمال، وهي من الخيول الأصيلة، هذه القصائد مفعمة بكل عبارات الحب

والشوق وحنين النفوس والقلوب للقاء المحبوب، غنية بالصور الجميلة للصحراء وسحرها المتعدد لسكانها.

يحترق قلبي بنارها لامرأة من الجنة
يا من لا تعرف مريم عجائب الله الفريدة هذه
عندما يظهر بمعاييره الطبول التي تزأرو إعجابه التي تلمها
مريم هي فرس أصيلة من يعيش بسعادة هي قصر ذهبي

تحب ظل الأوراق أنها تشرب الماء النقي الشفاف ويريد السود علاجها³¹.
من خلال ما ورد أعلاه نلاحظ أن دumas قد تعمق في حياة السكان وسجل أشعارهم التي تتعلق بالخيول، ومدى حبه وتقديسه لها، وقيمتها لديهم.

4- حياكة البرنوس: تشتهر بصناعته على الأغلب قبائل أولاد نايل، التي يعود نسبها إلى سيدي نايل الشريف، الذي استوطن أول مرة منطقة تافيلات، قرب قصر سيدي خالد، ثم انتقل إلى جبال عمور وحوض زكار وغيرها من المنطقة الغربية³².

وقد عرفت تجارة البرنوس تطورا مشهودا بسبب شهرته الكبيرة³³، حيث يصنع من وبر الإبل، المعروف بخفة وزنه، ويعتبر رمزا من رموز العروبة. ودليل على الهيبة والأصالة لدى القبائل العربية³⁴؛ فهو لباس عليا القوم وأغنياؤهم، وهو بمثابة معطف في منطقة الأغواط³⁵، وتحتل صناعته المرتبة الأولى في منطقة واد سوف³⁶، حيث تتواجد قبيلة أولاد سيدي عبيد، ويأتي في آخر سلم الإنتاج برنوس قبائل النمامشة، الذي يصنع من الصوف شديد الصفرة، والذي يتميز بالصلابة، لذلك لا يمكن استخدامه إلا في المنسوجات الخشنة، الذي كان يباع ب1 فرنك في الأسواق الأوروبية، إلى جانب صوف أولاد خليفة بن سالم، والذي كان يباع ب3 فرنك في منطقة الأغواط³⁷، حيث كان يصنع بوسائل بسيطة كالمشط والقرداش والخشبة والخلة والركيزة والصنارة، والتي ذكرتها بنفس المصطلحات الشعبية آنذاك.

تمثل هذه الكتابة نقطة وصل بين دumas والإدارة الاستعمارية من حيث نجاح الكاتب في نقل أدق تفاصيل مظاهر الحياة الثقافية لدى سكان الصحراء، مما أضاف

جوانب تكميلية للمشروع الاستيطاني الفرنسي فيما بعد، من حيث إحكام السيطرة على اقتصاد المستعمرة في ظل المنافسة الأوروبية.

5- الخيمة وطريقة إنشائها: تناولت المجلة كيفية تركيب الخيمة من حيث الطول والارتفاع، والوسائل والمواد المستعملة، والذي تفصح عن ثقافة معظم القبائل البربرية العربية، مثل قبائل أولاد نايل المشهورين بنسج الصوف والوبر. من الأدوات المستعملة الفليج (fluige)، وهو يصنع من الوبر، وتكون عملية صنعها على شكل قطع عريضة أو طويلة، تجمع هذه القطع الكثيرة وتخييط لتشكيل خيمة، إضافة إلى الأعمدة، والتي سمّتها المجلة بالركائز (الركيزة-rckisa)، توضع في نصف الخيمة لرفعها إلى الأعلى³⁸.

وقد جاء على ذكر الخيام الكونت غيو (compte guyot) أن الجزائر ذات طبيعة بدائية، حيث أن القبائل تعيش فيها أو كما يسمها "الكوربي" (gourbi)، وبخاصة منها القبائل البربرية، البعيدة عن الحواضر³⁹، مما يشكل دليلا على بساطة وفقر حال هذه الأسر من حيث السكن والإقامة، وهذا الحكم القطعي يتنافى مع النظرة العلمية والموضوعية، لأن سكان الصحاري والجبال لا يمكن لهم أن يشيدوا الدور والقصور، نظرا لطبيعة الأرض أولا، وللنشاط الاقتصادي ثانيا، حيث تضطربهم الظروف المناخية إلى التنقل والارتحال وعدم الاستقرار، ثم إن المجتمع الجزائري لم يقتصر على هذا النمط من السكن، والدليل هو تنوع واختلاف فئات المجتمع، حيث عرف العديد من أنماط المباني، كنظام الأحواش والمنازل، والتي أشار إليها الأرشيف الفرنسي من خلال مشروع الكونت غيو، وخاصة بيوت كبار رجال القبائل، والرؤساء والضباط، فهي ذات طابع هندسي تركي⁴⁰، والتي عرفت بها منازل البليدة والقلية والحجوط، والتي كانت على شكل مستطيل، دخلت ضمن ممتلكات البايلك وأهل المدينة، وهي تتميز بالمساحات الشاسعة، تحيط بها مزارع أشجار التين والبرتقال⁴¹، لذلك يمكن التمييز بين المساكن في الجزائر العاصمة وبقية المدن، بأنها تتميز بطابق واحد أرضي مغطى بمختلف أنواع الأشجار المثمرة كأشجار العنب والتين⁴². الملاحظ أن السلطات الاستعمارية الفرنسية مارست عمليات الهدم والتخريب منذ بداية تواجدها في الجزائر، وقد جاء في تقرير اللجنة الإفريقية لسنة 1853: "إن الجنود

قاموا بنزع الأبواب والنوافذ وأعمدة الأسقف، وقطعوا كذلك الأشجار المثمرة، حتى امتد التخريب وطال القصور الراقية"⁴³.

6- حياة البداوة والترحال: في سياق تناولها للصحراء الجزائرية، أشارت حولية الاستيطان إلى نمط العيش الخاص بسكانها، والقائم على الترحال والتنقل سعياً وراء الماء والكأ، والمكان الأفضل للعيش والإقامة، وهي طبيعة ملازمة للقبائل الصحراوية⁴⁴. يذكر الجنرال دوماس أن سكانها يسمون بالرحالة، ويلفظ الدارجة rahalla⁴⁵، وذلك يعود حسب رأيه إلى جذورهم وأصولهم، كونهم سكان أهل البادية (hull-el- badia)⁴⁶ حيث يعيشون في البرية، في الطبيعة المحيطة بهم، المليئة بالرمال والحصى، مما جعل أجسامهم شديدة القوة، مستعدة للمواجهة في كل حين، والذين يشبهون سكان الشرق، من حيث أنهم بدو رحل يعيشون على المشية⁴⁷، وهذا خير دليل على تميزهم "بالخشونة في التعامل"، مما انعكس على نمط تفكيرهم من خلال تصديهم للحكم الفرنسي، وظهور العديد من المقاومات الشعبية الراضية له، الأمر الذي لم يسمح باستقرار قوات الاحتلال في المنطقة⁴⁸.

الملاحظ أن الجنرال دوماس ذكر هذا مرة واحدة في الحولية، دون الخوض في التفاصيل، تقيدا منه بمعايير وشروط الكتابة فيها، والتي أكد رئيس تحريرها أنها صدرت من دون أي توجه سياسي أو انحياز، أو مناصرة لرأي ما، مما جعل دوماس يتوقف عند هذا الأخير.

7- الحَضْرَة- العيساوى (hadrah- aissaoua): تعتبر الحضرة تجمع ديني قبلي، يحضره الرجال والنساء، قرب ضريح ولي من أولياء الله الصالحين، مع ما يصاحب هذا التجمع من طقوس احتفالية، تنشد فيها الأذكار والمدائح الدينية، شكل مع مرور الأيام عاملا مهما في الحفاظ على خصوصية المجتمع وثقافته التقليدية.

الحضرة- هو من مصطلحات المتصوفة التي أصبحت من الموروث الشعبي الجزائري، كونها احتفال طقوسي اجتماعي، حيث تتشكل تجمعات بشرية، في موعد محدد، عند ضريح الولي الجدّ المؤسس للطريقة الصوفية، أو القبيلة وفاء لعهد الأجداد، والتزاما بالتقاليد، تكون بدواعي التبرك، والتقرب إلى الله تعالى بواسطة هذا الولي الصالح.

تتخذ الوعدة شكل ممارسات متوارثة ممزوجة ومختلطة باعتقادات أصحابها، تأخذ طابع (التكفير عن الخطايا والذنوب)، حيث يتضرعون لله العلي القدير أن يرفع المظالم، ويشفي المرض، ويحقق الرغبات، ويستجيب للدعوات، حيث يقام احتفال صاحب تصدح في أرجاء المكان الابهالات الدينية بالتزامن مع قرع الطبول والدفوف، ويظهر بارزا العنصر الرجالي أكثر من غيره، ولكن الملفت للانتباه هو مناداة أحد رجال الحلقة مناجيا الولي الصالح حيث يتحرك يمينا وشمالا بطريقة سريعة تواكب التهليل حتى الإغماء عليه⁴⁹.

إن الطقوس والشعائر الممارسة في الحضرة والوعدة التي تطرق إليها دوماس وامتدحها لم يعرف كُنهها ومغزاها، ولم يتعمق في فهم نفسية وتقاليده سكان المنطقة وعقائدهم، ولذلك نظر إليها نظرة الأوروبي المتشبع بقيمه ومقاييسه، ورأى فيها خروجاً عن المألوف، فاستهزأ بها واعتبرها من العادات السخيفة حسب معايير وقيم الحضارة الأوروبية.

ذكر دوماس قصة الحاج محمد بن عيسى أحد المرابطين في وهران، كان يقيم مثل هذه الاحتفالات في بيته، حيث تشعل الشموع وترقص النساء والرجال، بعدها تتم الصلاة والسلام على النبي محمد صل الله عليه وسلم، والدعاء لكل الحاضرين من النساء والأطفال الصغار وغيرها، ولاحظ الجنرال الفرنسي أنه يتم تعريض أجسام بعض الحاضرين للدخان المنتشر والمتصاعد من النار لطلب الشفاء، مع التهليل وقرع الطبول العالية⁵⁰، حيث يسميها الكاتب بالمهرجان الموسيقي.

تعتبر الرقصات في الحضرة والوعدة من الطوائف والشعائر الدينية التي يؤدها الأهالي عندما يتعرضون لأي أزمة، حيث تقرأ أثناء أدائها العديد من الأذكار عدة مرات، ويطغى الحزن على أصوات المرددات للأذكار، ثم يتقدم رئيسهم أو كما يسمى (mokaddam) بالدعاء لجميع المسلمين، بعد الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم، ثم يقوم بإشعال البخور، وذر الحبوب على الأرض، يترافق هذا مع إلقاء القصائد الشعرية تكريما للمرابط بن عيسى، ثم يتحلق الرجال دون النساء في مجموعات كبيرة، يؤدون رقصات معينة، بالإضافة إلى إطلاق البارود من بنادق خاصة بذلك، وحسب المؤلف يسمى هذا اليوم بعيد الجحيم عيد العيساوة⁵¹، والذي يفهم من كتاباته أنه يوم غير معتاد أو مألوف عند الأوروبيين، نظرا لما يقام فيه من أعمال غير طبيعية مثل حرق الأجسام أو إخراج النار من الفم وغيرها.

هذه الممارسات جعلت الجنرال دوماس يستهزئ بها مرة أخرى، ويرى أنها بعيدة عن العادات الحسنة، وغير إيجابية حسب وجهة نظره للمجتمعات الأخرى.

كان قصد دوماس من رواية هذه القصة تشويه صورة سكان الصحراء الجزائرية في أعين القارئ الأوروبي، بإيراده "الغرائب" عنهم وعن تقاليدهم وعاداتهم وطقوسهم الدينية، بوصفها بالخرافات المنتشرة في صفوفهم.

هذا الأمر دفع الجنرال راندون إلى الاستفادة منه، حيث أنه عمل على مراقبة تحركات شيوخ الطرق الصوفية والأولياء الصالحين، وكبار شيوخ المنطقة، سعياً منه لتشويه سمعتهم، والانتقاص من مكانتهم الاجتماعية عند الأهالي، لأنه يعلم علم اليقين أن هؤلاء يشكلون روح المقاومة ونواتها الصلبة، لذلك عملت سلطات المحتل الفرنسي كل ما في وسعها لإخضاع القبائل ورؤسائها، وشيوخ الزوايا والطرق الصوفية، والهيمنة عليهم قانونياً، إدارياً وعسكرياً.

لقد استعملت السلطات الفرنسية أسلوبين في التعامل مع شيوخ الطرق، الزوايا والأولياء الصالحين، قائمة على سياسة الاحتواء وسياسة الحصار؛ فالاحتواء يقوم على إغداق عديد الامتيازات لعدد من الطرق وشيوخها، أما الثانية فتقوم على سياسات مجحفة كإلغاء الحرمة، ومنع الزيارات والمس بالأحباس، وبالتالي تسهل انتشار المسيحية على ما يعتقد.

الخاتمة: من خلال كتابات الجنرال دوماس، التي هي عبارة عن دراسة ميدانية تحليلية وصفية لأهم المظاهر الثقافية التي يتميز بها المجتمع الصحراوي بصفة عامة، بحكم قربه منهم، ومعايشته لهم، ما جعله يعبر عنها بنوع من الدقة والشمولية، تجعلنا نستنتج من خلالها بعض النقاط منها:

- استعمل الجنرال دوماس التعابير الفضفاضة التي لا تعبر بدقة على حقيقة تلك المظاهر، وانتقائه لمصطلحات تكون بعيدة عن التعبير عن الرأي، ملتزماً بتعليمات مدير الحولية، خدمة للمشروع الاستعماري الذي ذكر مديرها كاذباً أنه لا يخدم التوجه الاستعماري، أو أي توجه آخر.

أما بالنسبة لتربية الخيول وثقافة الفروسية التي استهزأ بها الجنرال دوماس بمصطلح الأصلة في نظر أهاليها ما هي إلا تغطية لسياسة النهب والاستغلال، والتي عبر عنها بلفظ

الطيحة، وما انجر عنها من استغلال للممتلكات وغيرها حسب رأيه، بخاصة وأنه أدرج قصة نهب قافلة تمخض عنها حتى خيانة النساء للمبادئ الأخلاقية.

إن حياة البداوة وبساطة العيش مثلته ثقافة بناء الخيمة، والتي كانت تتلاءم ونمط حياة سكان الصحراء، خاصة أولاد نايل، إلا أن ضرورة تطبيق المخطط (الحضاري) الذي جاء به المشروع الاستعماري، من خلال بناء المنازل، وتطور الأحياء حسب وجهة نظره، ستؤدي إلى تحضر سكان البوادي والصحاري.

إن رمز النمط البسيط للحياة في الصحراء كان اللباس التقليدي البرنس، الذي يمثل مظهرًا حضاريًا عربيًا أصيلًا، ساهم لسنوات طويلة في تنشيط السياحة بالمناطق الصحراوية، لذا أقيمت عديد المعارض السنوية بدعم من فرنسا لإبراز أهمية خيرات المنطقة، ومن ثم الإشهار لها.

مما سبق يتضح أن الدراسة التي تقدم بها الجنرال الفرنسي دوماس، وعلى الرغم من التزامه بقواعد وشروط النشر في حولية الاستيطان، إلا أن ذلك لم يمنعه من التعبير عن رأيه ولو بتعابير بسيطة حول سكان الصحراء، ونمط حياتهم من الجانب الثقافي، والتي كانت دوما إلى جانب أحقية تطبيق المخطط الاستيطاني الفرنسي في الجزائر، لبعث روح الثقافة والاستفادة من إمكانياتها بشتى الطرق.

الهوامش:

- 1- عميراي حميدة وآخرون- السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844-1916- دار الهدى- 2009- ص 10.
- 2- Du Barail General-mes souvenirs- tom 02- libraire plan - 1895- p 47.
- 3- جمال خرشي- الاستعمار وسياسة الاستيعاب في الجزائر 1830-1962- دار القصة- الجزائر- 2009- ص 190.
- 4- Dumas- les chevaux de Sahara- les annales de la colonisation algériennes- t2- paris- 1852- p 09.-----5- Dumas- ibid.
- 6- القرآن الكريم- سورة العاديات- الآية 1-4.
- 7- Dumas- mœurs et coutumes de l'Algérie- op cit- p302.-----8- Dumas- les chevaux- op cit .
- 9- Hippolyte peut- des connaissances hippiques chez les arabes- éducation du cheval- annales de la colonisation- t1- 1853- p 05-07.-----10- Hippolyte peut- ibid - p205.-----11- Hippolyte peut- op cit- p 206.-----12- Hippolyte peut – ibid .-----13- Hippolyte peut- guerre entre les tribus du désert- les annales de la colonisation- t1-1852- p 44-46.-----14- de colomb- notice sur les oasis du Sahara et les routes qui y candissent- imprimerie de ch.lahure et Cie- paris- 1860- p 198.-----15- Hippolyte peut- guerre entre les tribus du désert- op cit- p 44 .-----16- Hippolyte peut – ibid.-----17- Dumas, chevaux de Sahara- op cit.-----18- Hippolyte peut- guerre entre les tribus du désert- op cit.-----19- Dumas- les chevaux du Sahara -annales de la colonisation- t2- 1852- op cit- p 11.-----20- Hippolyte peut- guerre - op cit- p 9-14 .-----21- Dumas- les chevaux du Sahara- op cit- p16 .-----22- Dumas- ibid- p.9.-----23- Dumas- bid- p 14.-----24- Dumas- les chevaux- op cit- p 15.-----25- Dumas- ibid- p 16 .-----26- Dumas- ibid- p19.-----27- Dumas- ibid- p.20.-----28- Dumas- les

- chevaux du Sahara- op.cit- p26.----29- Hippolyte peut- guerre entre les tribus du désert- op cit- p 45.----30- Hippolyte peut- ibid-p.46.----31- Hippolyte peut- ibid- p 46-47.----32- Marmont paluet-Bugeaud premier français d'Algérie – paris- 1914t - p 51.----33- Hippolyte peut- addition à la note sur le commerce des laines- annales de la colonisation- t1- 1852- p346.
- 34- وليام شالر- مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824- تر إسماعيل العربي- ش.ون.ت- الجزائر-1982- ص 83.-----
- 35- عبد الحميد زوزو- نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1900- د.م.ج- الجزائر-2007- ص 166
- 36- Hippolyte peut- addition a la note sur le commerce des laines- opcit.----37- Hippolyte peut- ibid .----38- Hippolyte peut- note sur le commerce des laines en Algérie- p 346-347.
- 39- A-N-O-M- GGA- 2x103-1- plans de la colonisation pour la Provence Alger- p 1-5.
- 40- A-N-O-M- GGA-2x103-1- plans de la colonisation pour la Provence Alger- p 6.
- 41- Pélissier de Reynaud- annales algériennes- premier tome - paris- Alger- 1854- p 22.
- 42- حمدان بن عثمان خوجة- المرأة- تقديم وتعريب محمد العربي الزبيري- ش.ون.ت- الجزائر-1982- ص 65.
- 43- nacer Eddine saidouni- l'algérois rural à la fin du l'époque ottoman 1791-1830- dar -al Gharb islami- 2001- p 290.----44- Hippolyte peut- guerre entre les tribus de désert- op cit, p 49.
- 45- Dumas- mœurs et coutumes de l'Algérie- tell- Kabylie-sahara- libraire de l'hachette et Cie- 1853- p 04 .----46- Dumas- ibid.
- 47- محمد العربي الزبيري- التجارة الخارجية للشرق الجزائري- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- ص 46.
- 48- Dumas- les chevaux...- op cit .
- 49- مباركة عماري ونجاة بقاص- دور التراث الشعبي في تنمية المجتمع الجزائري- مجلة أفاق علمية- العدد 11- 2016-2017- ص 22.
- 50- Dumas- guerre entre- op cit-p 226-230.----51- Dumas- ibid-p 226.